

التلقي والهيرمنيوطيقا مقارنة أولية

أ. تيرس هشام

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الجليلي ليليس بسندي بلعباس/الجزائر

إذا صكّان التاريخ الطويل للاهتمام بالإبداع الذي مادته اللغة قد عرف انشغالات عدّة شملت جوانب مختلفة في العملية الإبداعية من موهبة سحرية في المبدع إلى أناقة في التعبير إلى تمازج من المستمع أو المستقبل ، فإنّ العصر الحديث - القرن العشرين بخاصة - تميّز بتعميق البحوث في شكل جانب على حدة ، ما أدّى إلى ظهور مناهج كثيرة لمقاربة النصوص لا تخرج في تصوراتها العامة عن الاهتمام بجانب من الجوانب الثلاثة بالكتّاب أو النص أو الملقّي .

لقد صكّان الاهتمام الأول للمناهج النقدية منصّباً حول قطب الكتّاب المبدع وما يستتبعه من مقاربات تخصّ بيئته أو نفسيته أو أحداث عصره فكانت المناهج السبّاقية ممثلة في التاريخي والاجتماعي والنقسي وغيرها ، ثم انتقل الاهتمام بعدها إلى شكل النصوص الإبداعية في ذاتها باعتبارها أساطير مغلقة لا تحيل على سواها فكانت المناهج النسقية وأبرزها البنيوية الصورية ، ثم تحول النظر بعد ذلك إلى قطب القارئ و الإحداثيات التي يتموقع فيها ، " ظني الوقت الذي صكّان فيه الأولوية ، زمن سطوة البنيوية ، لتحليل النص باعتباره موضوعاً يملك خصائصه البنيوية المتميزة القابلة للوصف انطلاقاً من شكليات تتفاوت درجة صرامتها ، فإنّ التوجّه الجديد قد وجّه الاهتمام نحو إشكالية تداولية القراءة " ¹ . إنّ التمايز بين هذه المراحل الثلاث يشكّله الانفصالي لا يكون إلا من باب التصرف المنهجي ، لأنّ كلّ مرحلة صكّان تسكّت عن إشارات وإرماسات بما يليها من مكشوفات بحثية ، فإذا " صكّان الدراسات البنيوية قد اهتمت بالنص ومكوّناته ، فإنّ أهمّ مكوّن قد أثارتّه دون أن تلف عنه وتظنّ له كما فعلت للمكوّنات النصية الأخرى ، هو القارئ ، و القراءة ، و علاقة النصّ بالقارئ والتفاعل بينهما و غير ذلك في القضايا التي يثيرها قطب القراءة في النص " ² .

لقد شكّل التلقي بحق إحدى أهمّ الإشكاليات التي حظيت برّخ من البحوث والدراسات ، بل إنه شكّل إلى حدّ بعيد ميزة من ميزات القرن العشرين ، فقد لعبت هيمنة الثقافة الاستهلاكية دوراً هاماً في توجيه الأنظار إلى القيم التي يساهم الملقّي في صياغتها من حول مادة تلقيه ، و على هذا "غداً هذا الإلحاح على القراءة والتأويل، وعلى تعاون أو مشاركة القارئ سمة هامة من التاريخ المتّرج للإبستيمي المعاصر" ³ .

إنّ التلقي بوصفه نشاطاً للقارئ في تناول النصوص و فهمها يُعتبر حقلاً قريباً جداً من اهتمامات الدرس الهيرمنيوطيقي ، الذي يُعدّ في المقام الأول بحثاً في شروط قراءة النصوص الغربية زمنياً وثقافياً و تداولياً ، " و الهيرمنيوطيقا الرومانسية ، مثل تأويل الكتّاب المقدّس ، لا تهتمّ في فهم التأمّلات التفسيرية للكتّاب المقدّس فقط ، بل تهتمّ أيضاً في فهم العلاقة بين المؤرّك و الكتّاب المقدّس " ⁴ .

و نظراً لطبيعة العلاقة المتداخلة بين المبحثين: الهرمنوطيقا و التلقي، نتخصّص تناحيات كل طرف منهما على الآخر: الهرمنوطيقا في التلقي، و التلقي في الهرمنوطيقا .

1- الهرمنوطيقا في التلقي:

لقد طالمتنا السّينيّات من القرن الماضي (20م) يبروز اهتمام كبير في الأوساط التّقدّية العالميّة بمسائل التلقي و قراءة النّصوص الأدبيّة ، و قد تبلّور ذلك الاهتمام في بحوث أكاديميّة رائدة شكّلت باصكورتها دراسات نظريّة وتقدّية اتخذت تسميات متباينة بين نظريّة التلقي و جماليّة التلقي حيناً ، و نقد استجابة القارئ حيناً ، و علم اجتماع الأدب (سوسيولوجيا الأدب) حيناً آخر .

و لكنّ مكان هناك تمايز غير خفيّ بين هذه التّسميات ، تصنعه الخلفيّات العلميّة و الغايات التّقدّية ، بل و حتّى الاعتبارات الجغرافيّة أحياناً ، فإنّها لتلقي حول همّ نقديّ واحد هو إعادة الاعتبار لتقطب القارئ في عمليّة الإبداع و إخراجة من الظّل الذي قبع فيه عقوداً طويلة لصالح اهتمامات أخرى حاز المولّف الجزء الأكبر منها .

إنّ ما يهمّ في هذا المقام ، ليس تتبّع التطوّرات التي عالجّت مسألة التلقي ، أو استقصاء الفروقات بينها ، أو حتّى سرد مفاعيلها الرّئيسيّة في هذا المجال ، بل يهّمنا تركيز الحديث على النقاش المفهوميّ الرّابطة بين مباحث الهرمنوطيقا المعاصرة و إشكالات التلقي .

ولمّا كان ذلكر مسألة التلقي في حقل العلوم الإنسانيّة عامّة ، و في التّقد الأدبيّ خاصّة ، يحيل مباشرة إلى البحوث التي خرجت بها جامعة ككونستانس⁵ (L'Ecole De Constance) الألمانيّة على أيدي رائديها : هانز روبرت ياكوبس و " هولفغانغ إيزر " فإنّنا سنقتصر على هذه المرجعيّة العلميّة (ككونستانس) في تناولنا لأثار الهرمنوطيقا في مباحث التلقي .

ولمّا كان من البداهة كذلك أنّ كلّ نظريّة جديدة تسبقها إرغاصات تمهّد لانتقالها ، فإنّ نظريّة التلقي في ألمانيا لم تشدّ من القاعده ، مستفيدة من الإنجازات المتأبّية عليها في حقل التّقد الأدبيّ وكذا في الحقول المجاورة له " ومن خلال استقراء مصادر و مرجعيّات هذه النظريّة سواء عند ياكوبس أو إيزر ، فإنّنا سنجدّها قد اعتمدت على الإثّر الثّوريّ والفلسفيّ والعلميّ الألمانيّ من جهة ، وما أنجز في مجال الدّراسات اللّسانيّة والنّفسية والإبستمولوجيّة والفنيّة في الفكر الإنسانيّ عامّة⁶ .

وبعيداً عن التّلاقح المفهوميّ بين الهرمنوطيقا والتلقي ، كان من الطّبيعيّ أن تلعب البيئة الألمانيّة (البيئّة العلميّة) التي ظهر في أجوائها المبحثان دوراً في التقارب الواضح بينهما وفي أنّ تكون الهرمنوطيقا من أهمّ الأصول الفلسفيّة لنظريّة التلقي ، إذ تشغل الأولى أساساً على القارئ وتموقعاته وتدابير كلّ ذلك على فهمه للنّصوص ، "هرمنوطيقا النّص الأدبيّ هي تأويل للمعنى الذي يقرأه القارئ في النّص"⁷ ، فكما أنّ نظريّة التلقي وهي فحص دور الدّات القارئة في سيرورة العمليّة الإبداعية ، ومقدّرتها على فك رموز النّصوص وفهمها ، لا تبعد كثيراً عن مشاغل الفهم التي اتّعبت الهرمنوطيقا من شاليزماخر إلى ريكور مروراً بديلتاي ، بل إنّ هناك من يجعل من جماليّة التلقي (جماعة ككونستانس) نظريّة في الفهم⁸ .

لم يعد النصّ في ضوء نظرية التلقي نسقاً مغلقاً على شبكة من العلاقات الأسلوبية والبنيوية الصارمة ، أو إرسالية إبلاغية لا تكاد تقل من إرغامات صاحبها (المؤلف) واعتباره ومقاصده ، بل أصبح (النص) معطى في حالة إمكان، معطى لا تتساوى عملاءه عند شكل قراءة ، "فحينما ينتقل نص من سياق تاريخي وتلقي إلى سياق آخر ، فإن دلالات جديدة تلحق به ، وهي الدلالات التي لم يتوقعها المؤلف ولا القراء الأول"⁹.

إن النص يحكم طبيعته اللغوية التثبيته مؤهل لتلقيه أكثر من مرة ومن عدد لا حصر له من المتلقين ، "إذ ما دام النص يقرأ من مؤلفه ومن سياقه ، فإنه يقرأ أيضاً من متلقيه الأصلي ، وهكذا يهب نفسه قراء جدد باستمرار"¹⁰ ، وعلى ذلك اهتمت جمالية التلقي على غرار الهرمنوطيقا التي سبقها في ذلك بتاريخية القارئ ومواقفاته التي تصبغ نشاطه في تفهيم معاني النصوص وفهمها .

لقد تحول الاهتمام إلى القارئ تاريخاً وموسوعة ولغة وهوية بعد أن ظلّ الانشغال منصباً لفترات طويلة على قدرات المبدع ومواهبه وعقده ، وقد انعكس هذا على تصور المعنى الذي لم يعد رسالة خفية يجد القارئ في الكشف عنها ، بل أصبح حلقة بين ثلاثة أطراف (المؤلف والنص والقارئ) يلعب فيها القارئ دوراً أساسياً "فمقابل الباء الذي ينتج رسالة ، متسلحاً بكشافات لغوية ومصاحبة لغة وإيديولوجية وثقافية ومحدّات سيكولوجية ومعاملاً بعالم الخطاب، نجد المتلقي السليح هو أيضاً بنفس هذه الكشافات التي لا تكون متطابقة مع مثيلاتها عند الباء، وهذا التباين الميضي هو الذي يجعل المتلقي لا يمد إنتاج الرسالة التي يتلقاها ، وإنما يعتمد إلى تأويلها"¹¹.

لقد تناولت البحوث الهرمنوطيقية تاريخية القارئ من زوايا نظر مختلفة ، وبمقاربات مفهومية ومصطلحية متنوعة ، وكان فيلهلم ديلتاي قد عالج هذه المسألة من خلال موضعاته لفهم كعمليّة لتجربة تنتمي لنطاق الآخرة ، فالمتلقي يستحضر تجاربه ويطلعها بقية معاشية تجربة جديدة مخالفة تماماً وفهمها ، فلا ينسج من تجربته فكماً لا يذوب في التجربة الأخرى حتى تحدث المعاشية أو إعادة العيش (RE-lived) ، ومادام ديلتاي قد وجد بين النص وتجربة الحياة ، فمن المنطقي أن يؤمن بتغير المعنى مع تغير أفق تجربة المفسر باعتباره نقطة البداية لفهم سواء في الأدب أو التاريخ"¹².

كما تناول فيلسوف الوجود مارتين هيدجر المواقع القبلية للقارئ وذلك من خلال ما يسميه بالوجود هنا (Dasein) وتفاعلاته على الموسوعة القبلية للقارئ ، لأن "فهمنا الأوّلي ، غير المستقل عن وجودنا أو عن كينونتنا هنا (Dasein) يعنينا من الالتفات من وضعنا التاريخي الخاص لفهم الآخر"¹³ هذا الوضع التاريخي المسبق هو ما سيطور في مشروع لاحق لـ غادامير إلى ما يُعرف بالفهم الأوّلي الذي يتأسس على التحيز والتصورات المسبقة للمتلقى .

لقد وجد غادامير أن تاريخية المتلقي تلقي أمامها هوية أخرى ، هي هوية النص بأبعادها المختلفة ، التاريخية منها و الثقافية و التداولية و غيرها ، و أنه من أجل حدوث الفهم لابد من تلاقي البويتين أو تمازجهما ، ومن هنا "سيطور هانز جورج كادامير H.G.Gadamer تصوراً عن مفهوم "انصهار الأفاق" (Fusion des horizon(horizontureshmelzung بين وعين مستقلين ، ومن هنا سيصير ذلك الأصل في ظهور مفهوم أفق الانتظار "horizon d'attente" في دراسات التلقي الأدبي"¹⁴.

لقد أعاد غدامير الاعتبار إلى النزعة الذاتية التي تمثلها الذات القارئة في مواجهة موضوعية المادة المقروءة (النص) ، وذلك باهتمامه بتجريد تلك الذات وأفقها التاريخي ، ومعنى النص الذي ندرسه ما هو إلا "حدث" نتج بالضرورة من تداخل الأفاق التي يجلبها القارئ إلى النص والتي يأتي بها النص إلى القارئ¹⁵ .

إن الهرمنوطيقا بشكل عام ، وهرمنوطيقا غدامير خصوصا ، ساعدت بشكل كبير على بلورة جملة من المفاهيم التي جاءت بها نظرية التفكي في ألمانيا ، ولعل من أهمها مفهوم "الأفق التاريخي" وقد وجد ياكوب أن إعادة طرح اقتراح غدامير يتناسب مع سعيه في فهم الأدب وإدراجه في المنظورة التاريخية ، ويتناسب كذلك مع ملاحظته في ترويض فكرة (النص المغلق) التي تبناها المنهجية البنيوية¹⁶ .

إن أساس الارتباط بين الهرمنوطيقا ونظرية التفكي (جمالية التفكي في ألمانيا) هو في كونهما يسعيان إلى استعادة اللحظة التاريخية المفقودة ، فإذا كانت الهرمنوطيقا تجتهد في تحقيق فهم النصوص الغريبة الثنائية واستعادة التجربة الأخرى الغائبة ، فإن جمالية التفكي تركز في الأخرى على محاولة سبر التغيرات الطارئة على تفكي نص من النصوص ، أو ما يُعرف بالبحث عن تاريخ تفكي الأدب بدلا من تاريخ الأدب ، ويكسبون ذلك بتتبع أهالي الانتظار المتباعدة ، وبذلك تكون أولى مهمات جمالية التفكي قائمة على إعادة بناء أفق التوقع "للجمهور الأول" ¹⁷ .

ولذا كان للهرمنوطيقا حضور في التفكي حاولنا تتبع ملامحه المبكرى ، فإن للتفكي هو الآخر حضورا متميزا في أدبيات البحث الهرمنوطيقي.

2- التفكي في الهرمنوطيقا:

من الجدير بالملاحظة أن البناءات المفاهيمية التي شيدت على أساسها مباحث الهرمنوطيقا المعاصرة لم تكن ضيقة الأفق في التعامل مع الإشكالات التي تصدت لها ، ولعلها في ذلك بقيت وفيّة لالتزامها الفلسفي ، فقاريتها لإشكالية الفهم مثلا لم تقتصر على شكل واحد من التحقق كالتصور ،

كما أن الإشكاليات المبكرى للهرمنوطيقا نالت حظا كبيرا من الدراسة على يد الرواد الذين أسهموا فيها ككل من منطلقاته الإستمولوجية ووفقا لغايات معرفية محددة (ديتاي و تفرقة علوم الروح عن العلوم الطبيعية، هيدجر و الوجود، غدامير والنهج ... الخ) ، ولهذا نجدها تجعل من فهم الذات أو تأويل الذات موضعاً لاهتمامها .

إن مفارقة علوم الروح (العلوم الإنسانية) للعلوم الطبيعية أو التجريبية تكمن حسب ديتاي في خصوصية التجربة ، فبينما هي في العلوم الدقيقة ذات منحنى أمبريقي تجاوري يجعل من عملية البناء التراكمي أمرا ممكنا ، فإنها في علوم الروح (sciences de l'esprit) تتخذ طابع التفاعل الآني والمشاركة الحادثة ، لهذا فإن "الإحساسات والانطباعات والمواقف والهجات والألغام واللذات وكلها تجارب تخترق الجسد وتتوغل على هافته في نقطة اتصاله بالأشياء وانفتاحه على العالم"¹⁸ .

إن نقطة الاتصال أو الجسر الذي يربط الذات بالآخر هو خزان التجارب الذي تقرا الذات من خلاله ماضيها الذي يسرع هو بدوره تجاربها الحاضرة ، وعلى ذلك فالجارب التي تجتازها الذات لا تكون

بالضرورة دائما في موقع التأثر ، أو مجرد إعادة المعاشاة بغية فهم الآخر ، بل إن تلك التجارب معبر هام لفهم الذات وقراءة معلنها في لحظة تاريخية ما ، " وفهم الذات يتوسطه تفكيك عالم الرموز والفضاء الثقلي ، فتلتصق ذاتها أو تعي عالمها بهذا الاندفاع نحو عالم الأشياء والعلامات والرموز ¹⁹ .

يجربنا هذا إلى مسألة أسبقية المعنى على التأويل أو العكس ، ويول ريكور ممن تبوأ أسبقية المعنى على التأويل ، ويأسقامد هذا على الذات نجد أنه وضع على عاتق " التفسير الفلسفي أن يدرك كيف أن التأويل نفسه يقع للكائن في العالم إذ يوجد أولا الكائن في العالم ، ثم يوجد الفهم ، ثم التأويل ثم القول ²⁰ .

إن الذات في رحلة دائمة ولا متناهية من التأويل بغية سبر أغوارها والتماس تخومها ، وهي في ذلك تستعين بكل ما من شأنه أن يكون سيورة منتجة للمعنى ، سواء أكان منتميا لنطاق الأنا أم نافلا للآخرية ، ولذلك اعتبر ريكور أن " معرفة الذات هي قبل كل شيء تأويل لا يقل صعوبة عن تأويل الآخرين ، بل ربما أصعبها ، لأنني لا أفهم نفسي إلا بالعلامات التي أقدّمها عن حياتي الخاصة ، والتي يرسلها إلي الآخرون ²¹ .

إن المحب في تجاربه مثلا ، لا يقتد يمي خبايا نفسه ورويته لعاطفة الحب ، بمعنى أنه يدرك بعد كل تجربة أنه مختلف ومغاير تماما ، أي إنه لم يكن يمتلك تصورا خالصا يقيم عليه معايير التي يخبر بها تلك العاطفة ، الأمر الذي يخل بحاله الثوابن التي لا تتألى إلا من خلال الارتسكان إلى حقيقة ولوسكانت مؤقتة ، ومن هنا "الوعي بالذات ليس نشاطا معطى في السابق (الحفريات النفسية) وإنما هو أيضا فاعلية يتم إنجازها في اللاحق بمعنى التجارب وبواسطة الرموز والعلامات أو أشياء العالم ²² .

إن تجربة ما يسمى بالمحب الأول بإمكانها أن تمثل على ذلك ، فالذات بعد تلك التجربة تسعى دائما إلى تكرارها معتبرة إياها النموذج ، إنها تقيس عليها كل تجربة لاحقة دون أن تعي بأنه يستحيل تكرار التجربة الأولى ، لأن وعيه بيساطة أعاد تشكّله بتلك التجربة بمعنى : الوعي ليس قيمة متعالية جامدة وأجهت بها الذات التجربة الأولى ثم تواجه بها التجارب اللاحقة ، بل إن ما بعد التجربة الأولى هو الوعي الجديد الذي يلقي ما قبله ، وهو الوعي الذي سيغير اللاحق من التجارب التي تمهد سياقته بدورها ، ولذا سكان من المحال الرجوع إلى الماضي لإلغاء التجربة سكان من المحال أيضا إرجاع ما كان قبلها من وعي ، وفي هذه السيرة تتلقى الذات وتعبّر من محطة إلى أخرى من محطات الحياة.

الخلاصة:

لقد عرّجتنا على التلقي من زاوية نظير هيرميوطيقية ، فوجدنا هذه الأخيرة توسع مفهومه ليشمل من بين ما يشمل تلقي الذات ، أما إذا رجعنا إلى التلقي من منظور النقد الأدبي ، فقد كُطِرَح تساؤلات وجهية عن الكليات والمقارنات التي من خلالها يُتلقى نشاط القارئ على نص من النصوص ، وقد قدّمت جمالية التلقي في ألمانيا بالفعل جملة من المفاهيم يتقاسمها رائداها : ياكوب و إيزر ، إلا أن مجال اشتغالنا هاهنا لا يسمح بالتعرض لها ، نسي أن ينسج مقام آخر لذلك.

